أحاديث في فضل أمة محمد

صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الشيخ الوالد:

أبي قتادة الفلسطيني

(عمر بن محمود أبو عمر)

– حفظه الله ورعاه –

شعبان ١٤٤٣ هـ – مارس ٢٠٢٢ م



الإهداء

إلى القابضين على الجمر حتى يأتي وعد الله..

إلى كل مسلم وعالم بشر المسلمين بالفتح والرفعة رغم كل الموانع التي تحيط بأمتنا..

تقديم بين يدي الرسالة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

فهذه رسالةٌ لفضيلة شيخنا الوالد «أبي قتادة الفلسطيني عمر محمود أبو عمر» حفظه الله، جمع فيها جملةً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل أمة الإسلام العظيمة، بلغت أحد عشر حديثًا، مع التعليق عليها وشرح مضامينها واستنباط فوائدها؛ ذلك ليبث فضيلةُ الشيخِ الأمل واليقين بنصر هذا الدين انطلاقًا من هذه الاحاديث المباركة العظيمة.

وأنصح كل طالب علم وداعية وسالك طريق هدى؛ أن يقرأ كل أسبوعٍ باب فضل هذه الأمة عند الله، كما جاء في كتابه سبحانه، وما ذكره النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الصحيحة.

وفي قراءة هذا الباب من العلم فوائد عظيمة، منها:

١- درء اليأس والقنوط عن القلب، وتحصيل اليقين بنصر الأمة ولو طال الزمان.

٢- لفتُ النظر إلى ما في الأمة من خير وعدم احتقار ما هي عليه من صلاة وزكاة وعبادة وإن قلَّت.

٣- الرد على الخوارج الذين يكفرون عامة أو أكثر هذه الأمة، وذلك بنظر وفكر سوداوي مريض.

٤- منع استيلاء الخوف المحبط للإرادات، والمانع من العمل، والمثبط عن مواصلة المسيرة؛ فإن الإيمان يقوم بالخوف والرجاء، لا الخوف وحده، ولا الرجاء وحده.

٥- بيان ثقة القلب وزيادته بما عليه من دين وأعمال، فمعرفة فضل الأمة يكون بمعرفة أعمالها، فيزداد إقبال القلب على العمل الصالح

٦- تهوين شأن الكفار، وتسفيه ما هم عليه من دنيا أو دين، وهذا من معاني البراء منهم.

ويمكن العودة لأول كتاب حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي لمن أراد هذا الباب من فضل النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، والله الموفق لا سواه.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

شـرف المقام يعني شـرف المقصـد؛ فالمقاصـد العظيمة لا تقع إلا على العظماء، وهذه أمة عظيمة، ولذلك كلفت بتكاليف أعظم من تكاليف الأمم السـابقة، لا على معنى التشـديد ولكن على معنى الكرامة والفضـل، ولهذا كانت هذه الأمة مكلفة تكليفًا شـرعيًا بقيادة العالم، وأوجب عليها مقاتلة الكفر، ففي الحديث الصحيح: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"

والقرآن الكريم قرر خيرية هذه الامة بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وجعل مقام الخيرية معلق بقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وتقدمت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن هذا هو خاصـية هذه الأمة من بين الأمم، ويكون باليد وهو أعلى الفضل وهو جهاد في سبيل الله تعالى، ويكون باللسان وهو أوسط المقامات، ويكون بالقلب وهو أعذره عند الله تعالى

فهذه أمة عظيمة، لم يخل الفضل منها قط منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبض أرواح المؤمنين بالريح الطيبة قبل يوم القيامة

وهذا الفضـل المذكور في الآية وفي أحاديث كثيرة اخترت لك منها أحد عشـر حديثا صـحيحا وهي مشـتهرة على ألسـنة الناس وطلاب العلم كذلك ليس وضـعًا ذهنيًا لا واقع له، بل هو تقرير لفضـل قدري يخبرنا به الشارع الكريم، ذلك لأن البعض يظن أن هذا حكم شرعي بالأفضلية ومجرد من الواقع والتكوين، وهذا غلط شديد، ولذلك تجدهم يتكلمون عن هذه الأمة بتحقير وتصغير، ناسين فضلها وما هي عليه من الحق والخير والفضـل، والحديث عن زماننا هذا، ولقلة وعيهم على الأمم الأخرى وما هم عليه من جهل وظلم وفسـاد وشـرك ومنكر تجدهم حين يقارنون بين هذه الأمة والأمم الأخرى يستصغرونها ويسبونها ويحقرونها، ويقابلون هذا بتعظيم الأمم الأخرى، وهذا جهل عظيم

ومن الغلط نشر اليأس الذي نراه في دعاة ومفكرين، وذلك بتعظيم الشر في الأمة، ونسيان فضائلها، ويطلبون منها مطالب غير سننية لتحصيل عودتها للعزة وقيادة العالم، كوجوب أن تصلي الأمة كلها صلاة الجماعة، أو أن يكون الكل منها عارفًا بتفاصيل الحق الشرعي والقدري، وكل واحد من هؤلاء يعظم أمرا من أمور الدين فيجعله شرطًا للتغيير، فتنطلق ألسنتهم بالتحقير ونشر اليأس والقنوط

هذا مع ما يقع في زماننا هذا المتأخر من فضائل هي سمة الصالحين والشهداء والعلماء والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ولكن كما يقولون: المعاصرة حرمان

وهم لا ينظرون إلى سنن التداول، وهو تعاقب الناس في الغلبة والهزيمة، فهذه سنة جارية، لها قوانينها في الخلق، تعرف بالنص الشرعي والملاحظة في قراءة التاريخ وسنن القدر، ولذلك إذا وقعت الخسارة يومًا أطلقوا أسنتهم بالسب والتعيير والتحقير، وذلك بدل التعليم والترغيب للإصلاح والعودة مرة أخرى بهذا الإصلاح والتعليم والترغيب

فالأمم يقع لها الضعف كحال الإنسان، ويقع لها المرض، ولكنها تعود وتنشط، حتى تغير ما بها بتغيير الغلط والموقف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ويشمل تغيير ما بالنفس تغيير المعاني والإرادات والمواقف، فيزال الوهن والغلط والعجز بالدعوة وتذكير الفضائل وتنشيط الهمم وتقديم النماذج

ولذلك وجب نشر التفاؤل بتذكير الأمة بفضلها ومقامها، وذكر ما فيها من خير لينمو ويزيد ويستثمر

وهذه الأمة ما زالت وستبقى خير الأمم السابقة والمعاصر، ومن تأمل حالها وجدها في الخلق والدين والموقف هي الأفضل والأكرم والأعدل، وهذا بين لمن عدل وتأمل وأنصف

فالواجب بيان الغلط في الأمة بعدل وبلا تجاوز حتى لا ينقلب الإصلاح إلى إفساد واحباط وقنوط، هذا مع بيان ما فيها من خير وما أكرمها الله به من الكرامات

هذه الأحاديث محاولة لتذكير الأمة ما لها عند الله، وأي أمة هي في الدنيا والآخرة، والله الموفق

الحديث الأول: الآخرون السابقون يوم القيامة وفضل يوم الجمعة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع اليهود غدًا والنصارى بعد غد. متفق عليه

شرح الحديث:

من بعض فوائد الحديث؛ بيان أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تبيد، وأنها باقية حتى آخر الدنيا، فقوله صلى الله عليه وسلم: الآخرون، يعني آخر الأمم، فلا تخلفها أمة كالأمم السابقة التي أبيدت وذهبت

وهذا فضل من الله لها، فالآخر مكمل لما سبق، وهو أفضله وأتمه، ولا يعرف الكمال إلا به

فإذا جمع لقوله صلى الله عليه وسلم: السابقون، وهو يعني السبق في الفضل، فهم قدرًا خير الأمم لأنهم الآخرون، وهم الأسبق في الفضل والمقام المتعلق بالعمل، فاجتمع لهم فضل قدرهم وفضل عملهم، وهذا كمال العطاء

فإذا تعين سبقهم في الآخرين، وهو يعني اول من يسبق إلى الجنة كان هذا يقين الفضل وتمامه

وقوله صلى الله عليه وسلم: بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا، فهذا فضل جزئي لهم، لا يقع به سبق كلي، وقد يقدم المتأخر لمعنى خاص، ولكنه يبقى متأخرًا

ثم من تمام فضلهم في ذاتهم التي فطروا عليها أنه لما ترك لهم اختيار يوم عيدهم في الأسبوع هدوا إلى خير الأيام، وهو يوم الجمعة، وهذا فضل فطرتهم وأذواقهم، وهو من نوع وجزء فضل رسولهم صلى الله عليه وسلم لما خير بين اللبن والخمر والماء فاختار اللبن، أي الفطرة، ولو اختار الخمر لغوت أمته، فدل أنها أمة مهدية بفطرتها وبفضل رسولها في المعاني التي سرت إليهم منه

فاليهود ضلوا أقل من ضلال النصارى، حيث اختاروا السبت، وهو أقرب إلى الجمعة، والنصارى اختاروا الأحد وهو أبعد

واعلم أن الفضائل النبوية الغيبية لا تزول ولا تنسخ لا قدرًا ولا شرعًا، فهذا فضل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يزول، فلو ضلت لضل غيرها أكثر، وحين يهتدي غيرها لفضل تكون الهداية في هذه الأمة أعظم، وهذا بيّن في زماننا، فكل شر في هذه الأمة هو في غيرها أشد

وما زال يوم الجمعة في أمة محمد، وهو ابتداءً على معنى الهداية، والتزامة هداية أخرى

وهنا معنى مهم، وهو بيان فضل الأمم، فإن غلبة المذهب المادي في الخلق، وسطوة أهله على الدعاية والتوجيه جعل ميزان الأفضلية بين الأمم هو المادة وما في معناها، ولم يعد لفضل الخلق والإيمان والعمل الصالحة حضور في هذا الباب، وهذا غلط، فإن الأمم بإيمانها بالله والعمل الصالح والخلق القويم، وبهذا فأمة محمد صلى الله عليه وسلم في كل زمان هي خير الأمم وافضلها، لأنها كذلك عند الله وبفضل ما هي عليه، ولا يليق سبها ولا احتقارها، لكنها تؤمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ما قصرت أو أخطأت

ومن أدلة ما يقع في زماننا ويؤيد هذا دخول الناس في هذه الأمة المسـلمة مع ضـعفها المادي وغلبة الكفار عليها

الحديث الثاني: نصف أهل الجنة

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كُنَّا مع النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم في قُبَّةٍ، فَقالَ: أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا رُبُعَ أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: أتَرْضَوْنَ أنْ تَكُونُوا شَطْرَ أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قالَ: والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، إنِّي لَأَرْجُو أنْ تَكُونُوا نِصْفَ أهْلِ الجَنَّةِ؛ وذلكَ أنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وما أنتُمْ في أهْلِ الشِّرْكِ إلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأسْوَدِ، أوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ في جِلْدِ الثَّوْرِ الأحْمَرِ.

رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظ البخاري.

شرح الحديث:

هذا الحديث يبين فضل هذه الأمة في الآخرة، والآخرة يكون فيها المقادير بحسب نفس الله في الخلق حبًا وغضبًا، ويكون كذلك بحسب مقامات الأعمال لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧)﴾ [التحريم: ٧]

وهذه القسمة في الجنة بحسب مؤمني الانبياء السابقين وأتباعهم، ينبه النبي صلى الله عليه وسلم لهذا المعنى بقوله: الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، يعني أن مؤمني هذه الأمة بالنسبة لمؤمني بقية الأمم نصفهم

هذا معنى، وهو قريب، ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم: وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود...، وهذا يعني حديثًا عن العدد، وهناك معنى آخر له، وهو أن قسمة الجنة بحسب الإيمان ومنازل الأمم أن أهل أمة محمد صلى الله عليه وسلم تكون منازلهم مع قلة عددهم نصف الجنة، فيكون لهم فضل الأجر والثمرة لا العدد، وقد يفيد المعنيين

ومعنى ذلك ان عابد هذه الأمة خير من عابد أمة مؤمنة أخرى، وعالمهم خير من عالمهم، ومجاهدهم خير من مجاهدهم، ولذلك تكون لهم الأجور أعظم حتى يحتووا نصف الجنة، ويشهد له قلب المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم: وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود...، فمع قلتهم كان لهم الأفضل والأكثر

وهذا الحديث رد على من يكفر عموم الأمة، فإن كفرت الأمة فمن هي هذه الأمة التي لها فضل سكنى نصف الجنة؟

فهذه أمة محمد يدخل فيها كل مسلم موحد، ولا يخرج منها إلا من أشرك وكفر، وهم قلة، ففي الحديث: لا تقومُ السَّاعةُ حتى يلحقَ حيٌّ من أمَّتي بالمشركين، وحتى تعبدَ قبائلُ من أمَّتي الأوثانَ، فتأمل لفظ (حي) وقوله (قبائل) لتعلم قلة المذكورين

والله يقول في سورة الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦)﴾ [الإسراء: ٦] وهذا يدل على أن عنوان الأمة المسلمة ينطبق على أفرادها إلا من شذ وخالف

ولذلك من أطلق ردة أغلبية الأمة أو كفرها أو شركها لم يصب وقال باطلًا، ويبعد فضل هذه الأمة وخيريتها

وهذا من اعتبار فضل هذه الأمة في هذا الحديث وغيره

وهاهنا كلمة مهمة تتعلق بوصف الأمة بأنها قابلة للاستعمار، كما يقول مالك بن نبي رحمه الله، فهذا قول لم يحسن وصف هذه الأمة، وقد قاومت الأمة دين المشركين مقاومة من كل الجهات، أعظمها بقاء انتسابها لأمة محمد وتوحيدها لربها واتباعها محمد صلى الله عليه وسلم، مع ما لقيت من صنوف الدعاية الباطلة والتسليك الجاهلي، وخاصة ما تعلق بحكامها الذين فرضوا بمسالحتهم دين المشركين، ودفعوا الأمة دفعًا خارج مسمى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فباءت محاولاتهم بالفشل الذريع

تأمل قيامة أمة محمد من تحت النظام الشيوعي السوفياتي الروسي، كيف قاوموا دين الشرك، وكأن كل جهودهم باطل في باطل

ولو مورس هذا الضلال والدعاية والتربية على أمة أخرى لبادت، وهذه مصر المسلمة كم قاومت من جهود الشرك ومثلها بقية بلاد المسلمين

فأين هذا المسمى بقابلية الاستعمار!؟

ولو سئلت: فلماذا استعمرت إذا؟ فالجواب: أن ضعفها المادي وضعفها السنني لا يعني أبدًا قابليتها للاستعمار، فهذه السنن، وتقلب الظروف، والغلبة لها سننها، وتقع ضمن سنة التدافع والتداول، ولم يكن استعداد الأمة للاستعمار، ولذلك لم تسكن ولم تستسلم، بل قاومت وجاهدت

الحديث الثالث: بلوغ ملك هذه الأمة للأرض وعدم هلاكهم من عدوهم أو سنة تصيبهم

عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها -أو قال: من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا). رواه مسلم

شرح الحديث:

ما من فضل ناله المصطفى صلى الله عليه وسلم إلا ولأمته نصيب منه، وملكه صلى الله عليه وسلم يعني ملكها، والفضائل لا تنال إلا بالعمل، وكلما ارتقت الفضائل زاد التكليف، وهذه قاعدة مضطردة في الوجود، فالأنبياء يقومون من التكاليف التي تزيد عن بقية أمتهم، فبعد الاصطفاء للخيرية يكون الفضل لعملهم وعلمهم، وهذا وجه تأويل كلمة ابن حبان: إنما النبوة العلم والعمل، وليس قصده نفي الاصطفاء، والاصطفاء لا يكون إلا لمعنى يسبقه ومعنى يلازمه

وهذا الملك النبوي العظيم ترثه أمته صلى الله عليه وسلم معه ومن بعده، وقد كانت أعظم فتوحات البلاد من أمته من بعده، ففتحوا المشرق والمغرب

فقوله: زويت لي الأرض؛ أي زويت نظرًا له، وبشرى من الله، ووعدًا ينتظره، فرأى مشرق الأرض ومغربها

وبلغ ملك أمته من بعده ما زوي له صلى الله عليه وسلم منها، يعني وقوع الوعد والبشرى

وهكذا كان، فأمته اســتقرت في مشــرقها ومغربها، وكان حكمها عليهما، والحكم المادي قد يتقلص ويذهب حسب سنة التدول ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولكن استقرار دينه صلى الله عليه وسلم في المشرق والمغرب لا يزول

ولبيان ما يقع لهذه الأمة من أذى كان قوله صلى الله عليه وسلم: وإني سألت ربي...الحديث

فهذه أمة محصنة أمام اعدائها، فلا يقدر عدو على استيلاءهم، بل ما يقع منهم مجرد وقوع مسمى قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] فهي عوارض الوجود الحضاري، وعوارض البقاء الذي لا يخلو منه قوم ولا أمة، وقد وقع ابتلاءات كالجبال، وجاءت جنود تملا الأرض، من صليبيين وتتار وأروبيين وأمريكان فلم يروا إلا أمة عظيمة، حتى لهي تطبيق واقعي لقوله: لو اجتمع عليهم من أقطارها، ولكن لا يزيدها البلاء إلا جهادًا، ولا الجهاد إلا صبرًا، فذهبوا كأمس الذاهب

وهؤلاء اليهود مع خستهم ما كان لهم أن يكونوا ويبقوا ليوم واحد لولا تحالفهم مع الأقوياء، ولولا حبل الناس الذي يمدهم مدًا، وإلا فهذه الأمة ردت من هو أعظم منهم، ومع ذلك فإلى هذه اللحظة لم يستطع اليهود تطبيق حلمهم ولا عقيدتهم حتى على هذه القطعة الصغيرة من الأرض، وهذه أمة لا تنسى دينها، ولا تاريخها، ولا رجالها

وملك أمته يعني خضوع هذا الملك لسلطان الدين، والحمد لله، فما زال الاذان يصدح، والمساجد تملأ، ودور القرآن تخرج القراء، ومعاهد العلم يقبل عليها شباب هذه الأمة، والحمد لله. فلا يغلق عقلك بلاء نصاب به، فما هو إلا أقدار الطريق

وهذه الأمة لا تفنى بعذاب قدري من الزلازل والريح وغيرها كما هلكت بعض الأمم الأخرى

وهذا دليل بقاء هذه الأمة ومنع زوالها وإبادتها، والحمد لله

ولكن ما سلط عليها هو التفرق المذموم، والبلاء من أفرادها على بعضهم البعض، فيقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، وهذا لتأويلات أهل الباطل والبدع منهم، فالتسليط بالقتال له تأويلاته الكثيرة، وهي تأويلات باطلة، إذ خروج المسلم على المسلم بالسيف هو بلاء هذه الأمة التي يذم سببه ونتائجه، وأما بلاء الأمة في أعدائها فلا يذم نتائجه، لأنه الجهاد والدفع الممدوح عند الله

فكل تفرق يؤدي للقتال، وما هو في معناه من السب واللعن مذموم قبيح، وإنما يقول المؤمن عن فعل أخيه الذي يكره فعله: أعتذر إليك مما يفعل هؤلاء، ولا يبرأ منهم كما يبرأ من الكفار

ولكن مما هو أشنع هو تكفير بعضهم بعضًا، وهو علة قوله: ويسبي بعضهم بعضًا، وهذا لا يكون إلا بالتكفير الباطل في الأغلب

وهذا الحديث بين جلي أن هذه الأمة لا يجوز لهم لعن بعضهم بعضًا، ولا البراءة من بعضهم، بل يرفق بعضهم ببعض، ويرحم بعضهم بعضا، وأما تكفير طوائف الأمة فهو باب الشر الأعظم

الحديث الرابع: كثرة الأمة في الجنة، وسبعون ألفا منها يدخلونها بلا حساب

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ والنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَاهُنَا، وَهَاهُنَا – فِي آفَاقِ السَّمَاءِ– فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». رواه الشيخان

شرح الحديث

هذا حديث يبين أن أكثر المؤمنين في تاريخ البشرية هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم هو أكثر الأنبياء تبعًا، وأتباعه صلى الله عليه وسلم مؤمنون

وهم مع كثرتهم لهم فضائل في نوع الإيمان الذي يحصل لهم، ولذلك قال: ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب

وهؤلاء الخلص في هذا الباب من دخولهم الجنة بغير حساب ليسوا في زمن مضى وانتهى، فلقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث يصلح في هذا الباب في أن منهم من هو من الآخرين، ففي السنة لابن ابي عاصم (ح٣١٨) وعند الطبراني (ح٦٠٠٥) وفي تفسير ابن أبي حاتم (ح١٨٨٩١): أن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال، رجالًا ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)﴾ [الجمعة: ٣]

وهذا حديث فيه الوليد بن مسلم وقد صرح بالتحديث عن شيخه وعنعن في بقية الإسناد، وهو يدلس تدليس التسوية

وقال السيوطي والهيثمي إسناده جيد

وقد جاء في بعض الروايات، وفيها مقال: أن مع كل ألف سبعون ألفًا. قال الحافظ: اسناده جيد. وفي بعض الفاظه وهو عند الترمذي والطبراني وابن حبان في صحيحه: وثلاث حثيات من حثيات ربي. قال ابن حجر في مثله: اسناده جيد

وفيها مع كل واحد سبعون ألفًا. وأسانيد هذا المعنى ضعيفة

وفي بيان خصال هؤلاء الخلص جاء وصفهم: لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون

والشيخ ابن تيمية رد لفظ (لا يرقون)، وقال أنها غير محفوظة لمعنى فيها، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رَقى غيره، ورُقي من جبريل عليه السلام

ولم تأت هذه اللفظة (يرقون) في بعض روايات الصحيح

وأما يسترقون: أي إنهم لا يطلبون رقية غيرهم

ووجود الفضل العلوي التام بعدم الحساب يعني وجود ما هو دونه في غيرهم، وكلما قل الفضل كثر العدد، فهناك من يحسب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يناقش الحساب، وهذا ما أفاده تبويب البخاري في صحيحه كما في كتاب الرقائق، ففيه:

باب القصاص يوم القيامة

وبعده باب من نوقش الحساب عذب

ثم باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب

فهذه مراتب ثلاث، أولها قوله صلى الله عليه وسلم: من نوقش الحساب عذب، وثانيها: أهل قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)﴾ [الانشقاق: ٨] والذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: ذلك العرض

وثالثها وهي أعلاها، أهل هذا الحديث

وفي الصحيح شك في العدد: سبعمائة ألف

وفي مسند أحمد وصححه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما من حديث رفاعة الجهني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب، وإني لأرجو أن يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن الجنة

قال ابن حجر: فهذا يدل أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم، بل فيما يحاسب في الجملة من يكون أفضل منهم

الحديث الخامس : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين

روى البخاري (٧٣١١) ومسلم (١٥٦) عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ.

وفي رواية لمسلم (١٠٣٧): لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ.

شرح الحديث:

هذا الحديث يبين فضلًا عظيمًا لهذه الأمة تختص به، فقد باد أهل الحق كلهم من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، ولم يبق إلا الكفار منهم، ومن بقي قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم دخلوا في دين الله واتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن يبقى الحق كما هو في نفسه في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يأتي أمر الله، وهو الريح الطيبة التي تقبض أرواحهم، ولا يبقى إلا لكع ابن لكع

وهذا حديث يحتج به في الأصول على عدم اجتماع الأمة على ضلالة، وعلى حجة الإجماع، وأمر الدلالة هنا بين في ذلك.

والظهور على معنيين:

أولاهما؛ ظهور العلم وغلبة دلائل الحق زخرف الباطل، وهذ لا ينقطع ولا ينتهي، وأصحابه هم العلماء وأهل النظر، وهذا فضل لهم خاصة، فبالعلم يكشفون الباطل، ويكون لكلمتهم وضوح وقوة وظهور، ففي الحديث بيان أن الحق له ظهور، وفيه معاني لا تخفى، وفطرة الأمة تلتقي به وتعرفه وتدركه، كما أنها تميزه عن غيره

والأمة تبع لعلمائها، فظهور أهل العلم من أهل الحق يعني غلبة الحق في نفوس الامة، وفرق بين (ظاهرين) وبين (عارفين)؛ فالحديث لا يقصر معرفة الحق على طائفة، ولكن يكشف ظهور الحق بيد هذه الطائفة، وهذا في العلم يعني ظهورهم، وأجلى معنى لظهورهم هو الغلبة والوضوح والبيان، والأمة تبع لهذا الظهور، فهو بيان لفضل مقدميها، وهو بيان لفضل الأمة

وفي الحديث الثاني بيان حال الناس معهم: (خذلهم) و(خالفهم) والخذلان يأتي بعدم معاونتهم بما يقومون به من البيان والثبات عليه، والمخالفة تأتي من أهل البدع داخليًا ومن أهل الشـــرك خارجيًا، وكلاهما يأتي على هذه الطائفة

وثانيهما هو الظهور القدري، وهو الغلبة والسـلطان، وهذا يحققه المجاهدون، وهذا الظهور قد يتخلف لســنة التداول، كما قال تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، وتخلف القدر بعدم غلبتهم لا يعني عدم ظهورهم مطلقًا، فالظهور يكون بحسـب الحال، فهو نسـبي، فهذا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم سمى الله نجاته من قريش في الهجرة نصرًا ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، فســمى الله نجاته نصــرًا، فدل أن النصــر نســبي المعنى، وذلك بحســب القدرة والحال، والحمد لله، فالمجاهدون منصــورون في كل حال على هذا المعنى، يصــيبون من عدوهم ما يؤلم، وعدوهم يخاف منهم في كل حال، ولا يعرف في الوجود أحد يخاف الكفار تمكنه إلا المسلم

والقصد أن ذكر الطائفة لا يعني خلو الخير من بقية الأمة

الحديث السادس: الغر المحجلون من آثار الوضوء

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنِّي سَمِعْتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: إنَّ أُمَّتي يُدْعَوْنَ يَومَ القِيامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن آثارِ الوُضُوءِ. رواه الشيخان

شرح الحديث:

بعض من تأثر بمقاييس الجاهلية في رفعة الأمم وخيريتها لا يرى لأمة فضلًا إلا بعلوها الدنيوي، وغلبتها المادية على غيرها، وأما قيم الإيمان والأعمال الصالحة فليست بشيء، أو أقل من هذا المعيار، وهذا باطل يجب تصحيحه في نفس المسلم، فكل الأمم المسلمة التي اتبعت الرسل قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانوا الضعفاء، ولم يحصل لهم الغلبة على عدوهم إلا بالهلكة القدرية السماوية، ومع ذلك هم خير أممهم، وأفضلهم وأحسنهم، ذلك لأن معيار الخيرية والفضل هو معيار الإيمان حتى لو خلا من التحصيل المادي

هذا لا يعني أن التحصيل المادي لا دخل له في الفضل، بل له حضور، وحضوره بين إيمان وإيمان، لا بين إيمان وكفر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير

فهذا تفضيل بين مؤمن ومؤمن، ومع ذلك قال صلى الله عليه وسلم: وفي كل خير

وفي سورة الصف قال تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف: ١٠-١٣]

فتأمل مراتب الوعد، وتأمل أن أعظم ما يحصله عبيده الصالحون، ومن لهم الفوز: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [الصف: ١٢] وهذا يتم له وصف ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [التغابن: ٩] والفضلة بعد ذلك ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾

[الصف: ١٣]، ففرق بين الأصل وبين الفضلة، وهي فضلة عظيمة لكنها بالنسبة لما تقدمها تبع لا أصل

وهذا الأصل إذا سلم لم يضره غياب الفضلة، وذلك كما حدث مع أهل الأخدود والسحرة الذين آمنوا

وهذا الحديث الذي هو في رأس الصفحة يبين عظمة هذه الأمة وفضلها وخصائصها في جوانب عظيمة، هي كذلك عند الله ومحبوبة: الوضوء

وهذا المحبوب يصنع تميزًا يوم القيامة، وميزان الحق هو ما يكون يومذاك، وهذا العمل له آثاره: غرًا محجلين، يعني خير الأمم كما من كان وصفه من الخيل كذلك هو خيرها وأعلاها وأغلاها

فمن حقر ما عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم من وضوء وصلاة وزكاة وحج وذكر الله فهو مبطل فاسد العقل والهداية، وهو حين ينبه على خطأ أو ضعف أو تقصير في أمر فإنه لا يجوز له أن يحقر ما عظمه الله، بل هو مقصد النبوة والخلق، وما كان الوجود إلا لذكر الله والثبات عليه، بل وما كان الجهاد والغلبة إلا لما قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١]

فهذه الغلبة وسيلة للعبادة، وليست العبادة وسيلة للغلبة

ومن هنا فقد أخطأ من جعل مقصد الرسالة تحصيل الملك، أو كقولهم إن الرسالة لا تتم أركانها إلا بالملك، فهذا خطأ، فالملك وسيلة لمقصد الرسالة وهو عبادة رب العالمين، وعبادته بذكره واعظمها الصلاة

وهذا الحديث يبين عظمة الوسيلة إلى الصلاة، وهو الوضوء، فكيف بالأصل وعظمتها عند الله

فبقاء الوضوء والصلاة وما هو على معناها من الزكاة والصوم والحج يبقي هذه الأمة خير الأمم، وهي كذلك حتى يرث الله الأرض

والذين يحقرون هذه الأعمال لضـــعف يصـــيب الأمة، أو حصــــول قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ١٤١] هم مبطلون ولا يعرفون أصل الدين على وجهه الصحيح

الحديث السابع: استمرار الجهاد في الأمة

عن سلمة بن نفيل الكندي قال: كنتُ جالسًا عندَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ أذالَ النَّاسُ الخيلَ ووضعوا السِّلاحَ وقالوا: لا جِهادَ قد وَضعتِ الحربُ أوزارَها فأقبلَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ بوجهِهِ قال: كذبوا الآنَ، الآنَ جاءَ القتالُ، ولا يزالُ من أمَّتي أمةٌ يقاتِلونَ على الحقِّ، ويزيغُ اللَّهُ لَهم قُلوبَ أقوامٍ، ويرزقُهم منْهم حتَّى تقومَ السَّاعةُ وحتَّى يأتِيَ وعدُ اللَّهِ، والخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامَةِ، وَهوَ يوحي إليَّ أنِّي مقبوضٌ غيرُ ملبَّثٍ، وأنتم تتَّبعوني أفنادًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، وعقرُ دارِ المؤمنينَ الشَّامُ

رواه أحمد والنسائي في المجتبى وابن حبان في صحيحة، وغيرهم، وسند الحديث جيد

شرح الحديث:

الشاهد في نص فضل هذه الأمة قوله صلى الله عليه وسلم: ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق

فهذا الفضل لهذه الطائفة متضمن أمرين:

أولهما: القيام على الحق علما وعملًا

ثانيهما: القتال على الحق

فكمال الفضل في هذين، إذ القيام على الحق في النفس عظيم، وهو يعني تعلم الحق ومعرفته، ثم الالتزام به، ولا يضيع لا في الذهن والنفس ولا في العمل والسلوك

وتعريف الحق في هذا النص يعني أن الحق في هذه الأمة واحد، لا فرق بين الحق زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحق في أي زمن، تقدم علينا أو تأخر، أو هذا الزمن، وهو بين في رد بدع المخلطين ممن يميتون أحكام الشريعة باسمها وتحت دعوى الاجتهاد أو الغائية والمقاصد أو اي دعوى أخرى

وأعظم الحق توحيد الله تعالى، وتوحيد الشرع المأمور به من الله تعالى، وما قتال أهل الإسلام الأعظم في كل زمان إلا تحت التوحيد وتطبيق الشريعة

فالحق الواجب تعلمه والدعوة إليه والالتفاف حوله هو حق الله على العبيد، وهي دعوة لا إله إلا الله، وتطبيق أحكامه

فهذا ترتيب الحق في كل زمان، والذين يدعون أن هناك ترتيب آخر في مراتب الحق جاهلون، ولا يستطيعون إقامة الحجة على كلامهم من كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته

وهذا دعوة أن لا يضيع المرء سعيه في بلوغ مرتبة هذه الطائفة

وهذا المعنى من الحق هو الذي صار فيه جهاد الأمة وقتالها في كل وقت، وأما غيره من الأبواب كالرد على أهل البدع فهو جهاد ودين، وهو عظيم، لكن لم يحصل قتال على هذا المعنى في تاريخ أمتنا، وإذا حدث فهو قليل جدًا

ولذلك في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: ويزيغُ اللَّهُ لَهم قُلوبَ أقوامٍ، ويرزقُهم منْهم حتَّى تقومَ السَّاعةُ وحتَّى يأتِيَ وعدُ اللَّهِ

وهذا لا معنى له في جهاد أهل البدع بالعلم، وإنما يحصل بالجهاد الذي هو قتال الكافرين وأمثالهم ممن أبيحت لنا أموالهم غنائم وفيئًا

وهذا ليس تقليلًا من فضل جهاد أهل البدع، بل هو عظيم، ولكن الحديث عن مرتبة فاضل ومفضول، والفرق بينهما بحسب مرتبتهما في دين الله تعالى

وفي الحديث ترهيب من قتال المسلم لأخيه: يضرب بعضكم رقاب بعض

فقوم مشغول بإقامة الدين والناكب عن الإسلام، وقوم مشغول بقتال المسلمين واستباحة دمائهم وتفريق جمعهم

فهو حديث جامع لحال الناس وراء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم

الحديث الثامن: مثل الأمة مثل المطر

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره

رواه أحمد والترمذي وغيرهم، وسنده حسن ففيه حماد بن يحيى الأبح، وهو صدوق يخطئ

وله شواهد من حديث عمار بن ياسر رواه أحمد وابن حبان ورجاله ثقات

وشاهد من حديث عمران بن حصين رواه البزار والطبراني في الأوسط، قال البزار: لا نعلمه يروى بإسناد أحسن من هذا، ولا له عن عمران إلا هذا الطريق

وشاهد من حديث ابن عمر رواه القضاعي في الشهاب وأبو نعيم في الحلية والطبراني في الكبير. وسنده ضعيف

وشاهد من حديث عثمان بن عفان، رواه الرامهرمزي في أمثال الحديث بسند جيد

وشاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، رواه الطبراني في الكبير. قال العيثمي: فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم -الإفريقي-، وهو ضعيف

فالحديث مشهور وله أصل

شرح الحديث:

فيه بيان بقاء الفضل في هذه الأمة حتى زوالها بالريح الطيبة التي تقضي على المؤمنين ولا يبقى إلا الكفار

وقوله صلى الله عليه وسلم: لا يدرى، ليس ترددًا في فضل السابقين على اللاحقين، ولكنه بيان أن هناك من الفضائل العظيمة ما ادخرت للمتأخرين، ووجود الفضل في باب لا يعني السبق التام، فهو بيان أن هناك خيرات لها ميزة وفضل بقيت لهذه الأمة يصيبها رجال الأزمنة المتأخرة، وهذا في كل باب، ومن تأمل هذا المعنى وجد مصداقه في زمانه، وفي أزمنة مضت، وما زالت الخيرات مخبأة لأهلها حتى يصيبونها، وهذا في العلم، إذ يقع بعض المعاني الجليلة في القرآن والسنة في نفس عالم متأخر، أو

ناظر فيهما يكون فيه المعنى الجديد، والذي يعالج مسائل العصر هذا العالم أو الناظر، وهو مطر يتأخر وفيه النفع ما ليس في أول المطر

وقد يدفع الله بلاء مجرمين وكفار من طوائف مســـلمة متأخرة يقع عليها بلاء خاص لم يقع مثله في متقدمين عنهم، فيصيبوا فضلًا خاصًا بهذا البلاء

ثم من معاني هذا الحديث عدم تقديم المتقدم بالفضل على المتأخر مطلقًا إلا تقديم الصحابة رضي الله عنهم، وإلا فبعض من أخذ العلم عن التابعين هو خير من شـــيخه التابعي، وهكذا في كل عصـــر بحسب الذي يليه

والقصـــد أن الخيرات مخبأة في هذه الأمة ولهذه الأمة، خيرات من العلم والعمل، وخيرات من التقدمة، والعامل لدين الله يقتنصها ويحويها، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء

وفي الحديث لطيفة، وهو تســـمية الأمة هنا بالمطر، وفائدته النفع، فهو طيب في نفســـه، مطيب نافع لغيره، وقد أســـلم على يد متأخري هذه الأمة الكثير، وبلغ متأخرون أحاديث وعلوم وفقه لأمم كثيرة العدد، بل ربما أسـلم على يد واحد من متأخري هذه الأمة ما لم يسـلم على يد متقدم، كما دفع شـر على يد متأخر لم يقع لمثله من متقدم

فهذا فيه بيان فضـــل هذه الأمة، وأن من فضـــلها نفعها للخلق، وأنها كالمطر المغيث، حيث وقع نفع وأنبت، والحمد لله رب العالمين

الحديث التاسع: إرضاء الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم في أمته

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية وقال عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد -وربك أعلم فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك. رواه مسلم

شرح الحديث:

مع ما في هذا الحديث من ذكر شفقته صلى الله عليه وسلم ففيه فضل هذه الأمة العظيمة، فالله لا يقبل شفاعة من أحد بغير استحقاق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فمن استحق لفضل فيه ولمعنى يشفع له، وهم لا يشفعون إلا بإذنه سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وشفاعته صلى الله عليه وسلم عامة للخلق أجمعين وهي الدرجة الرفيعة وذلك ببدء الحساب، وله شفاعات عظيمة لأمته، منها ما هو رفع الدرجة، ومنها ما هو غفران الذنب، ومنها ما هو لمشرك في شفاعته لعمه بتخفيف العذاب

فقوله سبحانه وتعالى: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك، فهو اخص ما يكون بشرى لأهل المعاصي فيها، فهذا مما يخاف عليهم، وهم من قال فيهم: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وعند أحمد والحاكم بسند جيد: رأيت ما تلقى أمتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض، وسبق ذلك من الله تعالى كما سبق في الأمم، فأحزنني وشق ذلك علي، فسألت الله تعالى أن يوليني فيهم شفاعة يوم القيامة ففعل

وحديث الصحيحين: إن لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة

وهي كما في السنن: لأهل الكبائر من أمتي

فهذه الأمة هي أفضل أمم الوجود، فحسناتها خير من حسنات غيرها، وذنوبها لا تصل لذنوب غيرها، ولأهلها من المعاني من الخير ما لا تجده عند غيرها، من الرحمة ونجدة المظلوم والإحسان وطيبة القلب وحدة الذهن والشجاعة والكرم، ومن عاشر الأمم الأخرى علم صدق هذا جيدًا حتى في زمان ضعفها وجهلها ومعاصيها كما في زماننا

فالفضل في الآخرة للفضل في الدنيا، فهي عظيمة لانتسابها لسيد الخلق، وهو أسعد نبي بأمته، وهي عظيمة لخصالها

وهذا المعنى يذهب وساوس الشياطين في تهمة هذه الأمة وسبها وتحقيرها مقابل تعظيم الأمم الأخرى، مع ما فيهم من خسة ونذالة وجهل وعهر وقلة غيرة وسفك دماء وظلم

الحمد لله الذي جعلنا من أهل الإسلام، ومن أمة خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم

الحديث العاشر: امة الإسلام توفي سبعين أمة وهي خيرها وأكرمها

عن بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَلا إِنَّكُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

رواه أحمد والترمذي، وقال حديث حسن

شرح الحديث.

هذا حديث صريح الدالة على المقصود، وأن هذه الأمة أعظم الأمم، والمقصود بها الأمم الكبيرة، لا كل الأمم، فهي أكثر من هذا العدد، إلا إن قصد بالسبعين التكثير كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]

وكون هذه الأمة الأخيرة بقوله: (توفون) لا يعني تأخر المرتبة، ولذلك قال: أنتم خيرها وأكرمها

فهذه خيرية ذات وضعها الله لها، وهي كذلك كريمة عند الله يوم القيامة، فاجتمع لها فضل الذات في الدنيا، وفضل الكرامة يوم القيامة

والفضل في شرع الله يقابله التكليف، ولذلك فمهمة هذه الأمة مهمة عظيمة، وهي أعظم من كل التكاليف على الأمم السابقة، بدون إصر ولا أغلال كما وضع على الأمم الخالية

ومقصود التكليف هو التشريف، فكلفها بالجهاد لأنها أمة نصر، وكلفها بالطاعات لأنها أمة إخبات، وهكذا، فما من تشريف هو مع التكليف، لا يفارقه، وحيث قامت بالتكليف كان التشريف، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فكانت الخيرية لما كان من مهماتها في الأمم الأخرى، ولذلك تأخر ذكر الإيمان في هذا الآية، لأن الأمر بالمعروف هو فضل متعد ليصيب الأمم الأخرى

وليس هناك من حال تكون فيه الأمة إلا وهو افضل من حال غيرها، فضعف الأمة يقابله شر الأمم، وحسن الأمم يقابله أعظم من إحسانهم في هذه الأمة

واليوم يعاني العالم غياب قيادة هذه الأمة، فانظر حال الوجود ومقدار الشـــر فيه، وهي مع هذا الحال خير الأمم في دينها وخلقها وطاعتها لله تعالى

فهذه الخيرية مطلقة لا تتخلف في كل حال، وليس كما يقول البعض من تخلف ذلك، ظانين أن ضعفها اليوم أذهب خيريتها، بل هي خير الأمم حتى في ضعفها وهزيمتها

الحديث الحادي عشر: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله

عنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "لاَ تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ: الله، الله". رواه مسلم.

وعند أحمد: لا إله إلا الله.

شرح الحديث

هذا حديث عظيم، ومع ما فيه من أشراط الساعة وإرهاصاتها وعلاماتها فهو حديث يدل على فضل هذه الأمة المباركة، فلا أحد من الخلق غير المسلم يوحد الله تعالى ويشهد له بهذا الحق، ووجود المسلم الذي ينطق هذه الكلمة بصدق وإيمان يمنع هلاك الوجود وذهابه، فهذا فضل المسلم على العالم كله، وفي دلالته التبعية، يعني أن كل عمل طاعة يقوم به المسلم يعني نفعه للخلق أجمعين، فغياب عمل من أعمال المسلم لا يؤثرعلى المسلم نفسه فقط ولا على أهل بيته أو مجتمعه بل على العالم كله، ففضله يتعدى للوجود كله، حتى وجودهم في الأرض يمنع هلاكها.

ومن تأمل هذا الفضل علم قيمة كلمة التوحيد، وعلم قيمة الطاعات، وهذا يذهب ما يقوله الناس في كلمتهم التي تدل على الجهل والغلط من أن المسلم في زماننا قد فقد قيمته، فليس هو بشيء، ويفسرون هذا بسبب غياب عزته وغلبته لأعدائه، وكأن هذا مناقض لسيرة تاريخ الإيمان، مع أن هذا مضطرد في هذا التاريخ منذ نوح عليه السلام الذي قال له قومه: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء: ١١١]، ولا ينظرون نعمة وجود المسلم على الأرض كلها، وهذا موقف إيماني غيبي لا يصلح إلا للمصدق لخبر السماء، والذي لا يقتصر نظره على الحياة الدنيا ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم: ٧].

كل عمل طاعة له دور في رزق الناس وحياتهم، وهذا داخل تبعًا في هذا الحديث، فوجودهم مرتبط بتوحيد المسلم، وما دخل في نعم الوجود داخل تبعًا في أعمال المؤمن الأخروي، وهذا بين واضح.

فالمؤمن حين يستغفر يؤثر في الوجود، وحين يتصدق، وحين يصلي، وهكذا، فما من عمل إلا وله تأثيره في هذا الكون، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وأنت تعلم غياب المسلم عن مركز القيادة في العالم ما أنتج من ظلمات وفساد، فالعالم بغير أمة محمد صلى الله عليه وسلم عالم مظلم بئيس، لا يوجد فيه نور الهداية، حتى فسد الكون في كل مجالاته، وفيه الظلم لتسيد المجرمين المشهد الظاهر من الحياة.

ليس من شرط الفضل أن يقر به الخصم، بل تزداد أجور الإيمان والعمل الصالح حين تكون غيبًا محضًا، ولذلك لا يضرك كفران النعمة من الخلق وبوجودك يعيش ويتنفس، ولكن كما هي قاعدة الإيمان: الله يعلمهم، وكفى به سبحانه وتعالى عليمًا.

فهرس المحتويات